

## نظرية الاغتراب في الفكر السوسولوجي

حداد صونية - جامعة باتنة-

### تمهيد:

يختلف مفهوم الاغتراب باختلاف اتجاهات الباحثين، واختلاف المجتمعات التي يدرس فيها، ومراحل تطورها، وحتى في المجتمع الواحد، كما يرجع سبب الاختلاف لتنوع التخصصات التي تناولته بالدراسة من علم الاجتماع إلى علم النفس والفلسفة، وهو مثلا يختلف معناه عند كارل ماركس عنه عند ماركيز H.Marcus رغم أن المجتمع الذي عولج فيه واحد وهو المجتمع الأوروبي، فما بالك باختلاف المجتمعات والثقافات وتطورها.

ويرتبط الاغتراب بإشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية وبالأمن والاطمئنان وبالطموح والتوقعات، وبالمكانة الاجتماعية<sup>1</sup>، وكل هذه المفاهيم تختلف في المجتمع نفسه حسب الجنس والمستوى الثقافي والسن والخصائص والمميزات الفردية، كما تختلف من مجتمع لآخر حسب الخصائص الثقافية التي تضرب جذورها في أعماق تاريخ كل مجتمع.

### مفهوم الاغتراب:

قبل التطرق إلى مفهوم الاغتراب، نشير إلى أن هناك من المفكرين والباحثين من يستعمله كمرادفا لاستلاب، كما نشير إلى أن الاغتراب الذي نتناوله يقابل الاندماج، بينما في دراسات أخرى يقابله الانتماء، كما في النص التالي: "والاغتراب باعتباره المقابل السلبي للانتماء مدخل يقوم على الادعاء بأن الشعور بالانتماء الذي يؤدي إلى بعث الرضا الذاتي الذي يعتبر أمرا ضروريا للوجود الإنساني"<sup>2</sup>، وهذا يعني أن الانتماء أو الشعور به يؤدي إلى الرضا كما يؤدي إلى إشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية، والتي تؤدي بدورها إلى التفاعل الاجتماعي المنتظر حدوثه في التنظيم الناجح، وبهذا المعنى يكون هو نفسه الاندماج المقابل الايجابي للاغتراب موضوع الدراسة.

ونقصد بالاندماج هنا الكلمة المرادفة للتفاعل مع التنظيم أي التفاعل مع مفاهيمه وقيمه ومختلف أوجه أنشطته، ويبقى الفرق بينهما كالترتيب في الحدوث، فالانتماء سابق الحدوث عن الاندماج، وهو الذي يؤدي إليه، أي أن الاندماج يكون بالشعور بالانتماء ثم التفاعل وفق شروط معينة، كما أن الاندماج لا يعني التكيف، فالتكيف الاجتماعي يعني: "تعديل السلوك وفقا لشروط التنظيم

الاجتماعي وتقاليد الجماعة والثقافة"، بينما يختلف الاندماج عن ذلك، فهو إن لم يحدث، لا يعني ذلك بالضرورة أن الفرد لا يمكنه تعديل سلوكه وفق متطلبات التنظيم، ولكنه لم يحدث لأن هناك شروط موضوعية داخلية وخارجية لم تحدث، وإن حدثت فإن الفرد سيتكيف مع شروط التنظيم.

وبعد هذه التفرقة المبسطة لأهم المفاهيم القريبة من مفهوم الاغتراب، وهي الاستلاب والاندماج والتكيف والانتماء، نتناول فيما يلي مفهوم الاغتراب وبالمقابل الإيجابي له الاندماج، حيث يؤدي الاغتراب إلى معنى أدق وأبعد من الاستلاب، فالمقصود بالاستلاب هو الحرمان بمختلف أنواعه: المادي والفكري والروحي، وهذا المعنى كان يقصده ماركس عند معالجته لظاهرة الاغتراب، وهو نفسه لمن درس هذه الظاهرة من بعده، ولكن لا يمكن إسقاطه على التنظيمات الصناعية القائمة على التسيير الاشتراكي ولا على المجتمع بأكمله، إذ لا يزال هناك تماسك كبير فيه، ولا يزال الفرد يحس بالانتماء إلى الجماعات الأولية، يحس فيها بالاطمئنان والأمن ويشبع رغباته وحاجاته الإنسانية، بينما في المجتمعات الأوروبية، فالفرد يصل به الأمر أحيانا إلى اليأس لافتقاده إلى هذه الجوانب داخل التنظيمات الصناعية أو حتى في مجتمعه، وفيها يمكن دراسة ظاهرة الاغتراب بهدف الدفاع عن الإنسان كإنسان ومن أجل تحقيق الفعالية التي لا تتحقق إلا بالقضاء على الاغتراب الذي لا يزول إلا بزوال عوامله، وتحقيق الاندماج.

والاغتراب هنا هو شعور الفرد في وسطه الاجتماعي بعدم الانتماء، وإذا حاول اجتياز ذلك واجه عدة عوائق تجعله دائما غريبا، وينطبق ذلك على العامل في التنظيمات الصناعية، إذ تشكل خصائص التنظيم وخصائص أعضاء التنظيم المتباينة في جوانب كثيرة، عوامل أساسية تتسبب في إحساس كل فرد بأنه غريب عن الآخر، مما يشكل خلافا في التنظيم، فالاغتراب ظاهرة مرضية تحدث في التنظيمات الصناعية وفي باقي التنظيمات الاجتماعية، فتؤثر عليها سلبا ويتعدى هذا التأثير ليمس الظواهر المرتبطة بها، وهذا ما يعبر عن المعنى العام للاغتراب.

لقد وردت العديد من التعاريف للاغتراب، ندرج منها تعريف ماركس إذ يقصد به: أن الفرد يمر أحيانا بأوضاع يفقد فيها نفسه ويصبح غريبا أمام نشاطه وأعماله ويكاد يفقد إنسانيته، وفكرة الاغتراب عند ماركس مأخوذ من فلسفة هيجل، "وهي فكرة أساسية في الماركسية لأنها تفسر وضعية الإنسان المؤلمة وقيمه في المجتمعات الرأسمالية، ويرى هيجل أن الفكرة المطلقة تغترب في

الطبيعة المادية، ويعني هذا أنها تصير شيئاً غير ذاتها لتظهر وتجد نفسها مرة أخرى في العالم، والإنسان والتاريخ"<sup>3</sup>.

ويأخذ الاغتراب عند ماركس عدة صور منها: "الاغتراب السياسي، وفيه يصبح الفرد تحت تأثير السلطة الطاغية مجرد وسيلة ولعبة لقوة خارجة عنه، والاغتراب الاجتماعي وفيه ينقسم المجتمع إلى طوائف وطبقات وتخضع الأغلبية للأقلية ولا سبيل للتخلص من ذلك إلا بالثورة، وأخيراً الاغتراب الاقتصادي وهو عند ماركس الاغتراب الأساسي وفيه تسود الرأسمالية وتستولي طبقة خاصة على وسائل الإنتاج جميعها، ولا علاج لها إلا بتملك الدولة لهذه الوسائل، يعني أن الاغتراب مرتبط بالنظام الرأسمالي، وللقيام على الاغتراب يجب القضاء أولاً على هذا النظام وبناء الاشتراكية التي تملك فيها الدولة وسائل الإنتاج"<sup>4</sup>، ومن خلال تحليله هذا نجده يشير لمفهوم الاغتراب بأنه: "العزلة النفسية والاجتماعية للبشر وسط غيرهم من الناس"<sup>5</sup>، وهذا يعني أن ماركس يرى "أن الإنسان يغترب عن نفسه نظرياً وعملياً في ميادين الحياة كلها وبواسطة القيم التي يؤمن بها ويخضع لها على الرغم منه، فهو يغترب عن نفسه نظرياً، في الدين والميتافيزيقا والأخلاق إذ يعرض عن وعيه الحقيقي، وعن مشاكله الحقيقية"<sup>6</sup>.

ولقد تناول ماركس مفهوم الاغتراب تمهيداً لظهور المجتمع الاشتراكي الشيوعي بدلاً من المجتمع الرأسمالي، مستمد تحليله من الحقبة الزمنية التي عاشها، والمعاملة القاسية التي تواجهها الطبقة العاملة من طرف أصحاب رؤوس الأموال، " فالملكية الرأسمالية، إنما تستند إلى استغلال وتسخير العمال، بمعنى أن ملكية صاحب رأس المال، إنما لا تصدر عن جهد شخصي، بل تصدر فقط عن جهود العمال ونتاج عملهم في المشروعات الرأسمالية"<sup>7</sup>.

إن الاغتراب في الفكر الماركسي يتماشى والأوضاع الاقتصادية للمجتمع الأوروبي في مرحلة زمنية معينة، ومع تطور المجتمع الاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي للمجتمع، تطور تحليل مفهوم الاغتراب لدى المحللين المحدثين له.

ومن هذا المنطلق هناك من يعرف العمل المغترب بأنه الاختيار السيئ وغير المكيف مع الفرد، فيؤدي به إلى نتائج ضارة، كما يشير إلى أي عمل يشعر صاحبه بأنه شيء أجنبي عنه فهو عمل مغترب، ويرتبط العمل المغترب بالتطور التكنولوجي وأسس التشغيل، لذلك كان التوجيه لاختيار المهن المناسبة لأصحابها هو في الحقيقة توجيه نفسي اجتماعي وبيولوجي.

وإذا كان ماركس يعزى الاغتراب للنظام الرأسمالي، فإن بعض الباحثين المحدثين يذهبون إلى وجود الاغتراب في كلا النظامين الرأسمالي والاشتراكي،

وذلك انطلاقاً من أن الخبرة الحديثة التي تبين بأنهم مازالوا يعرفون أشكالاً للعمل المغترب، والشعور بالاستغلال، مهما كانت بنية المجتمع الكلية، إذ يحس العامل بحالات اللارتياح أو اللإشباع، وحدثت توترات تصل إلى حد التمرد العياني بكل أشكاله، كما أن العمل المغترب قد يؤدي بإحساس الفرد بالإحباط، ولذلك فإن الباحثين المحدثين ينطلقون في تحليل الاغتراب من منطلق العمل، وهو تحليل مساير لعصرهم، إذ ظهرت مدارس واتجاهات عديدة تدرس العمال في ميدان العمل، وقامت نظريات، مثل نظرية التنظيم العلمي للعمل، ونظرية العلاقات الإنسانية وغيرها.

كما أن هناك من يعرف الاغتراب في ضوء وضع الفرد في المجتمع الحديث، ويقصد به إحساس الفرد بالاغتراب إزاء المواقف المصيرية في حياته إذ ينتابه إحساس بالضعف والعجز وأن القيم السائدة غير ذات معنى بالنسبة له، أو أنه غريب عن جماعته الاجتماعية وتنظيمات الحياة الاجتماعية، أي شعور الفرد "بالضعف واللاقوة في مجتمع أصبحت تسيره التقنية والطرق التنظيمية العقلانية، فأصبح عاجزاً عن أن يفعل شيئاً أمام التطور التكنولوجي"<sup>8</sup>، وهذا ينطبق بدرجة كبيرة على المجتمع الأوروبي لبلوغه درجة عالية من التنظيم، وهو موجه له أصلاً.

ولقد تناول بالدراسة اغتراب الفرد في مجتمعه ماركيزوس Marcus ودراسته في معالجة الاغتراب الحديث، دراسة أمبريقية على عمال التنظيمات الصناعية وكذلك لدى الشباب والمهاجرين، وهو يرى أن أسباب اغتراب العمال هو انتقالهم من الحرفة إلى المركب الصناعي وبالنسبة للشباب هو انتقالهم من جماعات أولية متماسكة إلى أخرى كبيرة البنية والتجانس مثل الانتقال من محيط الوالدين إلى محيط الجامعة، بينما عند المهاجرين فلقد ركز على دور اللغة والعائلة في التكيف، بالإضافة إلى انتقالهم من تنظيم إلى تنظيم آخر يحمل خصائص لا تتطابق مع خصائصهم.

ولقد تنوعت الموضوعات التي تناولت ظاهرة الاغتراب، فهناك من يرى أن سببها هو تضخم المجتمعات وسيطرة العلاقات الرسمية والبيروقراطية وهذا التعريف يدخل أيضاً ضمن نطاق التعاريف التي أسلفنا بذكرها.

ومن أهم أسباب تعدد معاني مفهوم الاغتراب وبقائه غير دقيق، هو تداخل مختلف الفروع الإنسانية في تناول هذا الاصطلاح، كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والسياسية وغيرها، كما أن هناك صعوبة متعلقة باستعمال هذا المصطلح، وهي أن موضوع الاغتراب متصل بعلم الاجتماع لعلاقته بتحليل

أنواع السلوك الاجتماعي، كما يستعمل في تفسير ظواهر التعصب العنصري، المرض العقلي، الوعي الطبقي، الصراع الصناعي والصراع السياسي، غير أنه في الآونة الأخيرة وبفضل الجهود الجادة توصلت إلى تغليب الطابع العلمي على تعريف هذا المصطلح.

وقد سعى سيمان من أجل التغلب على هذا الغموض وهذه الصعوبات، وذلك بالفصل في الاستعمالات المتعددة لهذا المصطلح، والتي يجب الفصل بينهما، وذهب إلى أن موضوع الاغتراب، فلسفي أكثر منه إمبريقي، باعتبار أنه مرتبط بالطبيعة الإنسانية حيث كتب "Israel"، يقول: «كل نظرية للاغتراب مرتبطة بنظرية أو تصور للإنسان والطبيعة الإنسانية»، وعلى هذا الأساس تنحو أغلب الكتابات حول الموضوع منحى فلسفياً، وفي هذا يقول كذلك فرانسوا بيررو F.perroux مفهوم الاغتراب، اللاغتراب، أنسنة humanisation ترجع في نهاية المطاف إلى العلاقة بين الذات والموضوع وهو خاص بالفلسفة في كل الأزمنة<sup>9</sup>، وإلا أن هذه التعاريف لا تنفي تماماً معالجة موضوع الاغتراب إمبريقياً، خاصة إذا كانت الدراسة تقيس مؤشرات مستنبطة من الواقع وبالأستعانة بالتحليلات الفلسفية وبأدوات قياسية دقيقة من أجل التحقق من نقطة الانطلاق المتمثلة في الفرضيات.

ولما كانت التحليلات الفلسفية تربط بين الاغتراب والإبداع، فإن الإبداع هو قمة اللاغتراب، وهناك من يقول أن الإبداع عكس الاغتراب مثل روجي غارودي R.Garoudy، ومن هذا المنطلق يعتبرون الاغتراب هو وليد المجتمع الصناعي، حيث تختفي الحرف والمهارات اليدوية، ويحل محلها الإنتاج الذي لا يعكس شخصية المنتج نظراً للتقسيم الدقيق للعمل، فلا يتمكن الفرد من معرفة قيمته أثناء العملية الإنتاجية.

وبالرغم من خضوع ظاهرة الاغتراب لبعض الجوانب النفسية، فهو يخضع كذلك للمعالجة السوسولوجية، فالحالات السيكولوجية للاغتراب هي وليدة للظروف الاجتماعية وانعكاساتها، وهذا ما يبرر أن تكون النظرية النفسية الاجتماعية كأحسن منظور لدراسة الظاهرة، وذلك وفقاً للتعريف التالي: الاغتراب هو "الحالة السيكولوجية التي تسيطر على الفرد سيطرة تامة تجعله غريباً وبعيداً عن نواحي واقعه الاجتماعي، يعني أن الاغتراب له جوانب نفسية وجوانب اجتماعية"<sup>10</sup>.

ولهذه الأسباب فإن المفكرين السوسولوجيين في العصر الحديث ينظرون إلى كارل ماركس بأنه أول من أدخل مفهوم الاغتراب في النظرية

السوسيولوجية، وان كتاباتهم الحديثة عن الاغتراب ما هي إلا معالجات لمقولات ماركس عن الاغتراب، بمعنى أنه ظهر نتيجة العلاقات الاجتماعية التي تفرضها علاقات الإنتاج والعمل الصناعي، وهو بذلك ليس حديث الظهور، ولكن هو مصطلح له ماض طويل وتاريخ في ميدان الأفكار، فكما أسلفنا الذكر، أن ماركس أخذ هذه الفكرة عن هيجل، فهي ليست وليدة القرن التاسع عشر بل إنها قديمة ظهرت في عدة عصور، عند الأثينيين من خلال أفلاطون، وعند فلاسفة الرومان والمسيحية، حيث تختلف طرق التناول من عصر لآخر. وسنعرض فيما يلي دراسات أوائل علماء الاجتماع الذين درسوا ظاهرة الاغتراب وهما: دوركايم وماكس فيبر:

### 1- إميل دوركايم والاغتراب:

لم يتطرق دوركايم إلى دراسة الاغتراب بطريقة مباشرة، ولكنه درسها بطرق غير مباشرة، وما دراسته للانتحار سوى دراسة للاغتراب في أعلى أشكاله، فالانتحار حسب دوركايم ناتج عن تفكك وانهايار في العلاقات التي تربط الفرد بالأنظمة الاجتماعية ذات الطابع الأولى، فلقد وجد "أنه حينما تتحطم وتضعف روابط المجتمع أو قيمة أو يكون هناك حيز بسيط للإحساس الداخلي بالمسؤولية اتجاه الآخرين، وفي هذه الحالة تكون الالتزامات المشتركة قليلة، ولهذا فإن الانتحار يكون من المتوقع حدوثه، هذا الظرف الخاص بفقدان القواعد التي تؤكد الالتزام يسميه دوركايم فقدان المعايير أو الأنومي "Anomie"<sup>11</sup> وما فقدان المعايير، وفقدان الفرد لذاته وسط المجتمع المتغير سوى شكل من أشكال الاغتراب وأكبر معبر عنه.

فأثناء دراسة دوركايم للدين، اهتم الجوانب الداخلية والاستدماجية لأنساق القيم والمعايير، والتي تعتبر في رأيه رموز عن المجتمع، وأنه لا فرق بين القيم المثالية والواقعية فالناس يرون في المجتمع أنه مقدس فيبجلونه، والواقعة الاجتماعية حسب دوركايم خارجية بالنسبة للضمائر الفردية لأنها شعور وفكر الجماعة، وحينما يفتقر الفرد إلى الإحساس بالتضامن الاجتماعي الذي تخلقه المسؤولية الاجتماعية يتكون لديه الإحساس بالعزلة الاجتماعية، التي تؤدي به إلى قلة الاندماج أي بمعنى أنه يحدث لديه الاغتراب.

كما يحدث الاغتراب بهذا المعنى الذي عالجه المفكرون والعلماء في المجتمعات المصنعة والمتقدمة والمراكز الحضارية الكبرى، فإلى جانب دراسة دوركايم للانتحار الذي يمثل شكلا من أشكال الاغتراب فإن دراسته عن تقسيم العمل، تمثل معالجة سوسيولوجية أخرى لظاهرة الاغتراب، يشير فيها إلى

التضامن العضوي، حيث يرى أن تكيف العامل مع العمل الصناعي يكون تدريجياً ليصبح تضامناً عضوياً، كبديل عن التضامن الآلي الذي يتصف به المجتمع الريفي.

كما ينظر دوركايم إلى الحضارة على أنها ناتجة عن تقسيم العمل، هذا الأخير يؤدي إلى عزلة العامل في مهمة ضيقة وروتين ممل عبر حركات متكررة لفترة زمنية طويلة قد تصل إلى سنوات عديدة، فبالرغم من الجانب الإيجابي لتقسيم العمل والمتمثل في التطور والتقدم، هناك جانب سلبي كشكل من الأشكال غير الطبيعية، إذ يؤثر على الفرد من حيث انطوائه حول مهمته وعزله في نشاطه الدقيق، فلا يحس حتى بأقرب معاوينه لانهماكه في هذا النشاط المتكرر ليفقد مع الوقت هذا العمل المشترك ويصل بعد فترة زمنية إلى اللاندماج.

فالعمل الروتيني المتكرر لأيام وشهور وسنوات، وتكرار نفس الحركات البسيطة تترك على العامل آثار روتينية وعزلة ورتابة وفقدان المعنى من العمل لديه، وهذه كلها ليست سوى عوامل أساسية في دراسة الاغتراب حسب الدراسات الحديثة.

#### ماكس فيبر والاغتراب:

اشتهر ماكس فيبر بنظرية عن "البيروقراطية" في التنظيمات، فهي أكبر وأشهر نظرية له، وأكبر عمل علمي قدمه، ومن خلاله توصل إلى دراسة ظاهرة الاغتراب، حيث وجد أن البيروقراطية تفرض على الفرد "قيوداً حادة على حريته الشخصية، وتلقائيتها، وما يرتبط بذلك من ضيق أفقه، وعدم قدرته على فهم الأدوار التي يقوم بها في علاقاتها بالتنظيم ككل"<sup>12</sup>، إذ نجد ستروس Strauss يذهب إلى أن "كلمة البيروقراطية تشير إلى جوانب النقص في بناء التنظيمات ووظائفها، فهي تؤدي إلى كبح المبادئ، وتبديد الجهد والطاقة، وتفتيت العمليات دون مبرر"<sup>13</sup>، فالبيروقراطية حسب ستروس لها تأثيرات جانبية على إبداعات الأفراد، وكذلك نجد "هارولد لاسكي LASKI يذهب إلى أن مصطلح البيروقراطية يستخدم للإشارة إلى: نظام الحكم فيه يمارس الموظفون الإشراف والتوجيه والسلطة على نحو قد يهدد حرية المواطنين العاديين"<sup>14</sup>، فهو بذلك يشير إلى قلة وجود مرونة في تطبيق القوانين داخل التنظيمات مما يهدد الحريات الشخصية.

وما هذه التفسيرات لتحليل مفهوم البيروقراطية سوى صورة واضحة عن الاغتراب، ففيبر نفسه كان متشائماً من النتائج البعيدة لها، والتي ستؤدي حسب رأيه إلى انهيار الحرية الفردية، وهذا ما أوضحه ماركيز في تحليلاته

للاغتراب في المجتمع الغربي الحديث وأمريكا كما كان يتصورها فيبر على المدى البعيد.

### الاغتراب عند كارل ماركس:

يرى المفكرون أن ماركس، يعتبر أول من درس ظاهرة الاغتراب دراسة سوسيولوجية، وموضوع الاغتراب هو ما يميز الفكر الماركسي، إذ لم يهتم به معاصروه فقط، وإنما مارس تأثيرا قويا على علماء الاجتماع المحدثين، لقد انطلق ماركس من مهمة إثبات الطابع الإنساني للمجتمع، باعتباره حلقة الربط بين مختلف العلوم الطبيعية أو الإنسانية، ابتداء من دراسته لفلسفة التاريخ كمدخل لعلم الاجتماع، ثم تركز اهتمامه على دراسة الظواهر الاجتماعية وتحليلها إلى جانب توضيحه لديناميات التغيير، لتصل دراساته المعمقة إلى دراسة الطبقات الاجتماعية والبناء الاجتماعي بنوعيه الفوقي والتحتي واستخدام في ذلك المنهج التاريخي المقارن علاوة على المنهج الإحصائي.

وتوصل ماركس إلى استخلاص نظرية الاغتراب التي يؤكد فيها أن الإنسان يفصل عن بيئته الطبيعية والتي هو جزء منها، لتصبح علاقته معها غير ودية وغير مباشرة، ويقصد بذلك أنه رغم تطور المجتمع البدائي إلى مرحلة حضارية نتيجة لسيطرته على الطبيعة بوسائل تكنولوجية وما يستتبعه ذلك من نمو في قواه الإنتاجية، فإن الإنسان يصبح غير قادر على الإحساس بالسعادة، لأن آثار التطور ليس لها جانب إيجابي فقط، وإنما يصاحبها إحساس الفرد بمشاعر الخيبة والغربة أو الاغتراب، وهذا ما صوره أيضا انجلز بالتعاون مع ماركس في أن المجتمع البرجوازي يمثل قمة الاغتراب في المجتمع الحديث. إن الإطار الفكري الذي طرحه ماركس حول ظاهرة الاغتراب يمثل نسقا فكريا متكاملًا يميزه عن غيره، وقد رفض ماركس التفسيرات الميتافيزيقية، فهو يرى أن ظاهرة الاغتراب، هي ظاهرة اقتصادية، مادية، سياسية، بالإضافة إلى أنواع أخرى.

لقد أخذ ماركس فكرة الاغتراب عن الفيلسوف الألماني جورج هيغل Hegel (1770-1831)<sup>15</sup>، حيث كان ماركس يفخر بقلبه للإطار الجدلي الذي استعاره من هيغل رأسا على عقب، إذ طبقه ليس على أساس الروح - كما فعل هيغل- ولكن على أساس المادة "فكل شيء في العلم بما في ذلك المجتمع نفسه يمر وفقا لضرورة جدلية - خلال مراحل ثلاث: الإثبات Affirmation أو الموضوع thesis، والنفي negation أو نقيض الموضوع antithesis، ثم تصالح الأضداد أو مركب الموضوع synthesis، وتستمر العملية التاريخية الجدلية عند



هذا المستوى بصراعات جديدة وتوافقات جديدة تتسم العملية التاريخية دائما<sup>16</sup>، وبتركيب هاتين المسلمتين لماركس نجد أن كل نسق من أنساق الإنتاج يبدأ بالثبوت والكفاءة، ثم يعزز اجتماعيا ليصبح بعد ذلك عقبة وحاجزا أمام تطبيق الاختراعات التكنولوجية والاستفادة منها وهنا ينبغي القضاء عليه بثورة اجتماعية تخلق نظاما جديدا للإنتاج مركب من النظامين السابقين.

وهنا تتجلى ظاهرة الاغتراب بوضوح، إذ تظهر في مرحلة التعزيز الاجتماعي للتطبيق التكنولوجي لتحقيق إنتاجية أكبر، حيث تبرز ظاهرة اغتراب العمال عن وسائل الإنتاج، وهو الاغتراب الذي يحدث بصفة عامة في القوى المغتربة الإنسانية، ورغم أن هيجل هو صاحب الفكرة، إلا أن ماركس صاغها صياغة جديدة، "فالاغتراب عند هيجل يعتبر حالة أو ظاهرة من ظواهر العقل ظلت تحمل الطابع الفلسفي عند الهيجليين اليساريين باعتبارها حالة أو ظرفا تظهر من خلال قوى الإنسان الخاصة كعوامل مستقلة أو وحدات تقوم بضبط أفعاله، بينما ماركس، كانت نظريته للاغتراب منطلقها فكرته عن الطبيعة الإنسانية من أجل العمل حسب احتياجاتها الأساسية وإمكاناتها، والطبيعة الإنسانية عنده تتمثل في: الكائن الاجتماعي، الكائن الكل، الكائن الخلاق أو المبدع"<sup>17</sup>.

لذلك توصل ماركس إلى أن الاغتراب يشكل عائقا أمام المبادرة الخلاقة والإبداع، ونقد للنظام الرأسمالي، هو في الواقع تصوره لإمكانية ظهور مجتمع "إنساني حقيقي" فالإنسان من حيث قدراته الكامنة هو " كائن طبيعي"، ونموه يستطيع أن يكون نموا لا متناهيا، وأن يتوصل إلى أعلى مراتب الابتكار فكريا وعملا.

غير أنه حسب ماركس في ظل ظروف الرأسمالية وعلاقات الإنتاج السائدة لا يمكن للإنسان بلوغ أعلى مراتب الإبداع، لذلك فسيصبح الحل لا مناص منه، وهو تغيير الوضع الاقتصادي.

ويرجع تعدد معاني الاغتراب عند ماركس إلى الناحية التحليلية بطرق معقدة وذات جوانب مختلفة، ولكن جوهرها هو انفصال الناس عن وسائل الإنتاج، حيث يفتقد العامل القدرة على الإنتاج أو توجيه النتائج، فتصبح العملية الإنتاجية خارجة عن حاجاته الإنسانية، ويصبح عمله غير اختياري، وإنما مفروض وليس وسيلة لإشباع حاجاته الإنسانية، وإنما وسيلة لإشباع حاجات خارجة عنه فيتحول عمله إلى نشاط اغترابي.

فالإنسان في عمله أصبح أقل من إنسان، طالما انفصل عن خصائصه الإنسانية الكامنة إذ لا يتمكن من إضفاء شخصيته على الإنتاج، بل إن إنتاجه ينفصل عنه ليذهب إلى مالكي وسائل الإنتاج وأصحاب رؤوس الأموال، ويكون العامل بهذا قد انفصل عن جوهره، هذا إلى جانب تقييد حريته في التصرف في الإنتاج وتدييره، فهو يتلقى الأوامر من صاحب العمل حيث تسير وفق قانون السوق.

إن الاغتراب يجعل انتاجات الإنسان تستقل عنه وتخرج من نطاق إرادته، ووعيه، ومراقبته، لتصير حقائق ذات سيادة مطلقة تضطهده، وتحط من قيمته لفائدة أقلية ممتازة تستغل هذا الوضع، وتحرص على دوامه، وهو وضع يصير المجرد فيه متعينا وهميا له من الواقعية ما يقهر به المتعین الحقيقي الذي هو الإنسان، ويظهر حين يصير الإنسان في قبضة قوى عدوانية هي من إنتاج نشاطاتهم، ولكنها ترجع عليهم وتجرفهم إلى مصائر لا إنسانية، مثل الأزمات والحروب والاضطرابات من كل نوع<sup>18</sup>.

لذلك كان القضاء على الاغتراب هو السعي من أجل جعله مالكا لنفسه، لا يؤمن بتبعيته، فالإنسان له رغبات عديدة يريد أن يرضيها، وهنا يتوجه ماركس إلى الإنسان الكلي الذي يظهر معه المجتمع الشيوعي، وهو إنسان يمتاز بالحيوية الطبيعية المتفتحة، وبقدراته الكاملة على التفكير النظري والنشاط والإبداع، إنه الإنسان الجديد الذي يتجاوز كل التناقضات داخل نفسه وفي مجتمع ويتجاوز اغترابه ليعيش حرا في مجتمع حر.

وفي ظل نظرية ماركس في الصراع الطبقي، وجد أن الملكية الخاصة هي منبع كل البشر، واتجه نحو الاقتصاد السياسي ليضع يده على تمزق الإنسان، حيث يرى أن الاقتصاد السياسي يري في العمل وحدة مستقلة عن الإنسان، وإن الإنسان ليس له دور في العمل، وهنا يرفع ماركس صوته ضد انقسام الإنسان على اعتبار أن الإنسان هو إنتاجه وهما وحدة غير قابلة للانقسام، وفصلهما عن بعضهما يعني فصل الإنسان عن جوهره، ومن هذا المنطلق ضاع ماركس ثلاثة مواطن أساسية في اغتراب العمل وهي:

- 1- الاغتراب في نتائج العمل، والذي يعتبره شرح بين العامل وإبداعه، فيقف الإنسان كجسم غريب وقوة قاهرة، وتصبح حياته عدائية وغريبة.
- 2- الاغتراب في فعل العمل، أين يفقد الإنسان شخصيته، فرب العمل هو من يقرر وسائل وطرق العمل.

3- اغتراب الحياة النوعية، فالنظام الرأسمالي يسلب الإنسان علويته وسموه، ليزداد فقرا، فيما يزداد غيره غنى.

أما فيما يخص الاغتراب داخل التنظيمات البيروقراطية، فلا يشعر العاملون في معظم الأحيان بالاستغلال، فهم يظنون أنها أوضاع ضرورية لخدمة المصلحة العامة وهو ما يسميه ماركس بالوعي الزائف، إذ يدعم هذا الوهم الذاتي التسلسل الرئاسي المحدد والمتبع بدقة للنظام، فبالنظر إلى الإطار الكلي للمجتمع نجد أن وعيه زائفا وليس له علاقة بالحقيقة.

فبالإضافة إلى انتقاد العاملين للقدرة على الابتكار والتخيل المبدع، فهم يتخوفون من تحمل المسؤولية ويسعون إلى تدعيم أوضاعهم من خلال صراعات الترقية داخل التنظيم، بينما لو كان إحساسهم بالاستغلال فقلب النظام وتغييره سيكون هدفهم، وهو الوعي السليم الذي يريده ماركس للعمل والعاملين.

إن الهدف من وراء تحليله العميق لظاهرة اغتراب العامل في النظام الرأسمالي يكمن في القضاء على الملكية الخاصة وصولا للاشتراكية في وسائل الإنتاج، فالقضاء على الاغتراب يفهم في إطار تصوره للمجتمع الشيوعي ذلك المجتمع الذي لا يقوم على تقسيم العمل والذي " يكون كل إنسان فيه حرا في أن يصنع شيئا واحدا فقط كل يوم وشيئا آخر غدا، أي أن يقتنص الحيوانات في الصباح، ويصطاد السمك بعد الظهر ويرعى الماشية في المساء، دون أن يكون قناصا أو صيادا للسمك أو راعيا للماشية"<sup>19</sup>.

ويمكن استخلاص نتيجة عامة لما ورد في كتابات ماركس حول ظاهرة الاغتراب، فهي تعتبر كرد فعل للأوضاع التي عاصرها في تلك الفترة في المجتمع الأوروبي، وما صاحبها من استغلال للإنسان في أبشع صورة، وما ينجم عنه من مشاكل اجتماعية، حيث استغل حتى الأطفال والنساء، فلقد هاجم البرجوازيين ووصفهم بالانسانيين، وأرجع أسباب هذا الاستغلال إلى النزوح الريفي، الذي أدى إلى اكتظاظ اليد العاملة، نظرا لارتفاع أسعار المساكن والأراضي، وانتشار المضاربات في بيع وشراء الأراضي من أجل إنشاء المشاريع الكبرى حيث يتم نزع ملكيات الريفيين ليتم انخراطهم بعد ذلك في المصانع، ولقد اعتمد ماركس في دراسته على التقارير التي كانت تقوم بها اللجان من حين لآخر حول أوضاع العمال، إضافة إلى تقارير الأطباء حول مدى صحة معاملهم ومساكنهم، وهذا ما تؤكد رسالته ماركس لانجلز إذ يظهر فيها تأثره البالغ إزاء الوضع السائد، وهو ما دفعه ليبرهن على كل ما يحدث في أطرحة علمية كان لها صدى تاريخيا كبيرا.

### الهوامش:

- <sup>1</sup> - محمد، بومخولف، اليد العاملة الريفية في الصناعة الجزائرية (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984) ص 103.
- <sup>2</sup> - نفس المرجع السابق، ص 104.
- <sup>3</sup> - الربيع، ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر، بين النسبية والمطلقية (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980)، ص 198.
- <sup>4</sup> - محمد، بومخولف، مرجع سابق، ص 106.
- <sup>5</sup> - نيكولا، تيماشيف، النظرية السوسولوجية، (القاهرة: دار المعارف، 1978) ص 87.
- <sup>6</sup> - الربيع، ميمون، مرجع سابق، ص 198.
- <sup>7</sup> - إسماعيل، قباري محمد، قضايا علم الاجتماع المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، (إسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1979) ص 152.
- <sup>8</sup> - محمد؛ بومخولف، المرجع السابق، ص 107.
- <sup>9</sup> - نفس المرجع السابق، ص 110.
- <sup>10</sup> - نفس المرجع السابق، ص 111.
- <sup>11</sup> - محمد، أحمد بيومي، علم اجتماع القيم (إسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1990). ص 100-101.
- <sup>12</sup> - محمد، بومخولف، مرجع سابق، ص 114.
- <sup>13</sup> - السيد، الحسيني، مدخل لدراسة التنظيمات المعاصرة (القاهرة: دار المعارف 1992) ص 50.
- <sup>14</sup> - نفس المرجع السابق، ص 52.
- <sup>15</sup> - نيكولا، تيماشيف، المرجع السابق، ص 85.
- <sup>16</sup> - نفس المرجع السابق، ص 85-86.
- <sup>17</sup> - محمد، بومخولف، مرجع سابق، ص 116.
- <sup>18</sup> - الربيع ميمون، مرجع سابق، ص 198-199.
- <sup>19</sup> - محمد، بومخولف، مرجع سابق، ص 120.